البحث الذي القي في ندوة الجزائر

لمناقشة تيسير النحو العربي

السيد وزير الاعـــلام

السادة الاعلام ، السلام عليكم ورحمة الله

في مفتتح كلمتي أتقدم باسم المجمع العلمي العراقي وباسم أعضائه هنـــا للشعب الجزائري ، وللحكومة الجزائرية بالتهنئة الخالصة على نجاح الاستفتاء(١) على الميثاق الوطني ، والتقاء الشعب والحكومة على أمر سواء من تثبيت أسس الاستقلال بوثيقة تضمن للشعب حقوقه وتحدد واجباته . واشكر بخاصة وزارة الاعلام ممثلـــة في ذات وزيرها الجليل الدكتور أحمد طالب الابراهيمي لاستضافته الندوة مدفوعا الى ذلك بحرصه البالغ على توفير أكرم الوسائل لخدمة العربية وتيسير تعلمها وتمكينها من السيادة على السنة أبنائها في الوطن العربي جملته .

أيها السادة : الموضوع الذي تنعقد الندوة من أجله (تيسير النحو) موضوع جليل وخطير ، لا لمكانته من الدقة ، وصعوبة التناول فحسب ، بل لذلك وللأهمية البالغة التي يكتسبها من كونه موصولا صلة بقاء بحياة الأمة العربية ، ومرتبطا عضويا بمصدر ثقافتها في ماضيها وحاضرها .

الأمر الذي يستوجب منا ــ أعضاء الندوة ــ يقظة وحسن تدبر ، وتناولا موسوماً بالثقة والحذر في آن واحـــد .

---

(١) كان اتحاد المجامع العربية قد اوصى بدراسة موضوع تيسير النحو العربي من قبل مجامع اللغة العربية . وعقد للدراسة ندوة في مدينة الجزائر بتاريخ ١٩٧٦/٦/١٤ لمدة سبعة أيام اشتركت فيها الجهات المعنية في القطر الجزائري وهيئات وممثلون عن الأقطار العربية . والقيت في الندوة بحوث ومقترحات ، كان منها هذا البحث وقد وافق انعقاد الندوة الاستفتاء على الميثاق

تاريخ الإسلام والحضارة

هذه القضية سبق لبعض المعنيين بأمر اللغة في عهود قريبة وبعيدة أن أولوها ، وكتبوا فيها كتبا ، واتخذوا بشأنها قرارات ، ولكنهم لم ينتهوا الى أمر اكتسب صفة الرضا والقبول من غالب المعنيين بشئون اللغة أو القوامين على تدريس النحو وهم جميعاً (شكر الله سعيهم) ألقوا أضواء على المشكلة ووجوه حلها ، ما نشك في أن الندوة وضعتها موضع المراجعة .

ان المعنيين بشئون العربية يتجهون الان بابصارهم الى الجزائر باعتبارها الوطن العربي الذي يسعى الى التعريب بخطى حثيثة ، وان ما يتم هنا (في هذه الندوة التي حشدت لها طاقات مجامع ثلاثة هي في ذروة ما يأمل الحريصون على تيسير العربية من مقام) مرصود مراقب .

يرقبنا النحاة المحافظون التقليديون المتعنتون ليهيئوا لنا حسابا عسيرا ، حين نمس حرفاً ، أو نبدل نهجاً ، أو نبشر بجديد .

وينتظرنا المتربصون االلامسئولون باسم التجديد ، لا يرضيهم منا الا ان نمسخ الحرف العربي ، ونأتي على قواعده ، ونأذن للناس بأن يفيضوا في اللحن ولا يلتزموا فيما يكتبون او يقرأون قاعدة أو سبيلا مرسوما .

يبقى لنا الغيارى المدركون ، الحريصون على بقاء اللغة حية متنامية ميسرة ، لا يقف عائق في وجه تعلمها وتعليمها .

وعند تقدير هؤلاء سنعمل ، ولوجه الله ما نبغي من هذا العمل .

ان الدراسات النحوية من اسبق دراسات هذه الامة ان لم تك أسبقها ، وهي من أوائلها محاولة لكشف ما في طبيعة العربية من أسرار وخصائص . وقد ظلت دواعي الحركات التي تلحق أواخر الكلم حبيسة الملكات العربية الفطرية ، والاحساس الجماعي الباطني دهوراً لا نعرف بالتحقيق مداها .

يستشعرها العربي بالغريزة ، ويدركها بالسليقة ، وتنتقل اليه بالمحاكاة والقدوة ، الى أن أذن الله لعقول العرب أن تتفتح على ما في الأصوات التي تلحق اواخر الكلم من اسرار ، وان تتبين أمر هذا الذي تصطنعه السنتها على أواخر الكلم رفعاً مرة

ونصباً مرة وجراً ثالثة وجزماً بالسكون والحذف رابعة ، فانتهى المستقرئون لنصوصها ، والمقارنون بين ما يجري على السنة أبنائها ، الى ان هناك ضوابط تنظم الكلم ، وقواعد تسود التعابير . وان هذه الأصوات التي تنتهي بها كلماتها في الجملة ، علامات تقام ، وأدلة تنصب ، لتضيف لمعنى المفردة وهي مستقلة معنى جديداً حصلت عليه حين دخلت في الجملة ، وتبين لها (على وجه اليقين) ان الاصوات التي تلحق اواخر الكلم ليست فضولا ولا عبثا ولا يمكن تجاوزها او الاستغناء عنها ما دمنا نريد الابانة عن دور المفردة في الجملة وعن مهمتها التي أنيطت بها في الأداء .

وكانت (فيما تحدث به تاريخ هذا العلم) بداية الجهل الغرزي الفطري بما ينبغي ان يكون عليه آخر الكلمة في الجملة ، بداية العلم الواعي بما يجب ان يكون عليه آخر الكلمة في الجملة ، وكانت بداية الخروج على العربية بداية اللواذ بها والتمسك بها ، والاعتصام بما جرت عليه أساليب نطقها .

ولولا اللحن الذي تسرب الى السنة بعض العرب في صدر الاسلام واستشعار المعنيين بالامر خطره على سلامة اللغة ، ما تداعى الحريصون الى تبين خصائص العربية ، والكشف عن أسرار تعابيرها بحيث انتهوا من ذلك الى وضع قواعد تكشف لهم سر الاعراب وتعينهم (متى أدركوا معنى الجملة) على تجنب اللحن .

فشائبة اللحن اذن قديمة سبقت ظهور علم النحو ، واستمرت باقية بعد ظهوره ، وستستمر بدرجات متفاوتة على السنة الناس .

والظاهرة الصوتية التي يجب ان تلحق آخر المفردة عندما تكون في جملة موكولة بالاساس الى ادراك المتحدث وليس لعلم النحو الا بعد توفر الادراك ، ومهمة علم النحو تذكير المتحدث والكاتب بالصوت او الرمز الذي يجب ان يضعه على اخر الكلمة متى أدرك هو قبل ذلك وظيفة الكلمة ، فان لم يدرك المتحدث مهمة الكلمة في الجملة لا يستطيع النحو مهما احكمت قواعده ان يذكر بالصوت الذي يجب ان يوضع على آخر الكلمة في الجملة .

ومتى سلمنا بذلك وقصرنا دور النحو على التذكير بالصوت الذي يوضع على آخر الكلمة في الجملة ، ثم آمنا بأن دوره التذكيري يجيء متأخرا عن دور الادراك لمهمة الكلمة أعفينا النحو من تحمل مسئولية اللحن .

ان النحو لا يعين كون الكلمة فاعلا او مفعولا ، وانما يعين ذلك ادراك المتحدث ومتى استقر في ذهن المتحدث كونها فاعلا او مفعولا جاء دو ر النحو بأن يذكر الصوت اللازم الذي يوضع على آخر الكلمة .

لهذا فاني اذهب الى ان اتقان علم النحو واحكامه لا يؤدي وحده الى تجنب اللحن ، لان اللحن يرتبط بالادراك لمهمة الكلمة في الجملة وليس للنحو صلة ملزمة بادراك مهمة الكلمة في الجملة .

وبعبارة أخرى ان اللحن في الغالب لا يجهل القاعدة النحوية في ان الفاعل مرفوع حين يلحن ،وانما يجهل ان تكون هذه الكلمةفي موضع الفاعلية ولوادرك انها في موضع فاعلية لهان عليه ان يتذكر ان الفاعل مرفوع ، وان يضع الضمة على آخر الكلمة .

ان الاعرابي الذي تلا قوله تعالى : « إن الله برئ من المشركين ورسوله » . (بكسر اللام في رسوله) لم يكن خطؤه ناشئاً من انه جعل الواو للعطف لأنها للعطف على أية حالة ، وانما نشأ الخطأ من انه لم يدرك انها معطوفة على كلمة سابقة غير كلمة المشركين .

لهذا ارى انه من الخير بل من الحق ان ننقل المشكلة من مكانها الذي وضعت فيه ، ونتلمس لها مكاناً آخر غير علم النحو ، فلعلنا نجدها في المكان او السبب الذي عطل علم النحو من أداء دوره ، وتركه عطلا لايؤدي مهمته . اننا بمحاولاتنا تيسير علم النحو من أجل تجنب اللحن نكون كمن يعالج سليم البنية ليشفى كائن مريض غيره . وقديماً قيل : « كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع »

يجدر بنا أن نضع أمامنا الحالات التاليـــة :

١ــ رجلا لا يتعرض للحن حين يتحدث او يكتب وهو على غير زاد او على زاد

قليل من النحو . وهذا مشهود في كبار الادباء والشعراء بخاصة .

٢– رجلا يكثر من اللحن وهو على نصيب واف من علم النحو ان لم يكن من أئمته وهذا ما يلحظ على كثير من النحاة ومدرسي علم النحو بالذات .

٣– رجلا يفهم النص و يدرك أسراره ودخائله حتى اذا قرأه أكثر من اللحن في حين يتجنب الخطأ فيه من هو دونه فهما للنص والماما بالنحو . وهذا ما يلحظ على مدرسي تاريخ الادب وشارحي نصوصه وناقديها . وكذلك يلحظ على رجال الفقه وائمة التشريع ممن يفهمون نصوص الشريعة حق الفهم ولكنهم يلحنون عند قراءتها .

٤– رجلا يكاد ينعدم اللحن على لسانه وهو على براعة في فهم النص والمام جيد بالنحـــو .

فهل كانت الحالات التي يتجنب فيها اللحن موصولة بالحالات التي يتوفـــر فيها المتكلم او الكاتب على علم النحو ؟ .

أم هل كانت الحالات التي يكثر فيها اللحن موصولة بالحالات التي يضعف فيها علم النحو عند المتحدثين والكاتبين ؟

ان ملاحظة هذه الحالات والاجابة المرتقبة عليها تجعلنا اكثر تحفظاً عند القاء مسئولية اللحن على علم النحو ، أو على صعوبة علم النحو ، وترجع بنا الى ما قدمنا من أن علم النحو وسيلة تذكير وليس وسيلة تفكير ، وحين نحمل الوعي المفكر تعطل الذاكرة المذكّرة ولم يعد لها صادق فعل ، كذلك حين تعفى الذاكرة من أن تذكّر ، ويقل تحفيزها على التذكير تضعف ولا تستجيب بكفاية عندما تدعى لتؤدي دورها المحتملة لأعبائه .

ان الذي لا يلحن مع قلة زاده من النحو يكون من المدركين المتبينين لمكان الكلمة في الجملة بحكم كثرة ممارساته للقراءة والكتابة ، وبحكم استيعابه لدور الكلمة في الجملة ، وعندما يكون على مثل هذه الحال تبادر ذاكرته بشكل تلقائي غرزي (بحكم كونه عربيا) أو باستعانته بما عرف من علم النحو الى تعليق الحركـــة

(الصوت) على آخر الكلمة ، بشكل يتفق والاسلوب العربي في تعيين الصوت الذي يجب أن يوضع على آخر الكلمة .

أما الرجل الذي يكثر من اللحن ، وهو على نصيب واف من علم النحو او هو من أئمة النحو فانه أحد رجلين

آ : رجل ضعيف الادراك الأدبي لمكان المفردة في الجملة — وفي رجال النحو كثير مثله — فهو لايسعفه نحوه حين يخونه ادراكه ولعل علمه بالنحو يكون وبالا عليه وسبب توريط له .

لذلك تجده مترددا في الحكم الاعرابي للكلمة ، وذاهبا الى أن الكلمة مما يجوز اعرابها بصورتين ، عجزا منهم عن بلوغ حسم في المسألة .

ب : رجل قليل المراس للعملية الاعرابية ، وان كان على نصيب من علم النحو ، أما الرجل الذي يفهم النص ويدرك أسراره ويعرف النحو وضوابطه حتى اذا قرأ النص اكثر من اللحن فيه ، فذلك رجل لم يأخذ نفسه بالمران على الوصل بين فهم موضع الكلمة في الجملة ، وما يذكر به النحو من تعلية صوت معين على آخر الكلمة .

ان تعطيل جهاز الاتصال بين ما يدرك من مهمة الكلمة في الجملة ، وبين ما يذكر به علم النحو من حركة ، يؤدي مع الوقت الى ضمور الذاكرة وتعطيل الترابط بين فهم الكلمة وانطلاق الصوت (الحركة) التي تذكر بها القاعدة النحوية

فلحن هذا الرجل راجع الى تعطيله لجهاز الاتصال وليس الى جهله بالنحو او الى ادراكه لدور الكلمة في الجملة لهذا نراه يلحن حين يسترسل في القول ولا يلحن حين يأخذ نفسه بالروية والأناة . كذلك الامر لو طلب منه تحديد موضع الكلمة وتسميته في علم النحو .

اما الرجل الذي ينعدم اللحن على لسانه وهو على حال من الفهم لمهمة الكلمة في الجملة وعلى المام حسن بقواعد النحو ، فذلك هو المدرك والممارس ، والآخذ نفسه بالربط بين ما ادرك وما تعلّم .

وذلك هو المنتفع بعلم النحو ، المتجنّب لهفوات اللحن ، وهو القدوة الصالحة للقارىء العربي .

نريد من هذا ان نخرج الى ان الندوة ستحسن كثيرا حين تحاول ان تجد افاقاً اخرى الى جانب علم النحو نتلمس فيها الاسباب والعلل التي حالت بين الناس وبين لغتهم المعربة ، وألا تكلف علم النحو معقدا او ميسرا وحده مسئولية ما يشيع على السنتهم من لحن ، او مسئولية ، ما يجهلون من مواقع الكلمة وان يكون يكون بين ما يعاد النظر فيه اول ما يعاد النظر فيه القول المأثور :

ان النحو يعصم اللسان من الخطأ في الاعراب .

بقى على ان انوه بالحقيقة التالية :

ان هذه الندوة — وهي تنظر في تيسير النحو — يجب الا تمس الظاهرة الصوتية التي تلحق اواخر الكلمة عندوقوعها في جملة من بناء اواعراب ، ومن اعراب بالحروف او بالحركات ، وكل ما يتصل باساليب التعبير ، ذكرا او حذفا ، تقديما او تاخيرا ، فتلكم الامور خاصة العربية لا تكون عربية بدونها وهي ليست من صنيع النحويين ولا مما أدخلوه بافتراض منهم .

وفيما اعتقد ان الندوة ستحافظ على الهيكل التنظيمي الذي أقامه النحاة الاولون لعلم النحو ، وحافظ على كيانه سليما من جاء بعدهم من علماء النحو المتأخرين لا تمس المسميات من هيكل الجملة العربية ، ولا اسماءها في أغلب الاحوال وانما تأتي الاجزاء الرئيسة من هذا الهيكل فتوليها اكبر العناية بالتجسيم والتوضيح ، والتجريد مما لحقها خلال عمل النحاة الطويل من زوائد غشيت أجزاء الهيكل واغشت روحه ثم تنظر في توزيع مادة النحو على مراحل التعليم المختلفة .

وتنظر فيما يعين على فهم معنى الجملة ، وتحديد محل المفردة فيها بوساطة تنمية الادراك والذوق الادبي ، ثم بوساطة احكام الربط بين محل الكلمة والصوت الذي يعلق على آخرها بكثرة المران على القراءة المعربة .

عبد الرزاق محيي الدين